ISSN: 2750-6142

المجلد 3، العدد 9، 2024
Vol: 3 / N°: 9 (2024)

المجلة العربية لعلم الترجمة
Arabic Journal for Translation Studies
OPEN ACCESS

What Is Irony?
An Exploration of Multiple Perspectives on the Concept

Yassine Bouchouar
Mohammed V University, Rabat, Morocco
Email : Bouchouaryassine@gmail.com
Orcid : 0009-0007-1894-9985

Received	Accepted	Published
6/10/2024	31/10/2024	31/10/2024

: 10.63939/AJTS.tzf4wv96

Cite this article as : Bouchouar, Y. (2024). What Is Irony ? An Exploration of Multiple Perspectives on the Concept. *Arabic Journal for Translation Studies, 3*(9), 360-375.

Abstract

This paper explores various philosophical, sociological, and critical perspectives on irony as a research subject. This study aims to bridge the knowledge gap in the existing literature on the study of irony. Numerous views have emerged to deconstruct this complex expression and to understand its essence and functions within different social and cultural contexts. Some perspectives perceive irony as a liberation tool, offering individuals a significant space to critique social systems and prevailing ideologies. Conversely, others see it as a false ideology, destroying morals and taste. Some scholars view irony as a mechanism for domination and superiority, or even as a means of demeaning opponents. While some consider it excessive entertainment, opposing seriousness, others find it a powerful instrument for social reform. In addition to discussing these various opinions, this paper also addresses the distinction between irony and other similar expressions, such as laughter, humor, jest, teasing, and joking.

Keywords: Irony, Laughter, Humor, Sociology, Philosophy

© 2024, Bouchouar, licensee Democratic Arab Center. This article is published under the terms of the Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0), which permits non-commercial use of the material, appropriate credit, and indication if changes in the material were made. You can copy and redistribute the material in any medium or format as well as remix, transform, and build upon the material, provided the original work is properly cited.

المجلة العربية لعلم الترجمة
Arabic Journal for Translation Studies
OPEN ACCESS
المجلد 3، العدد 9، 2024
Vol: 3 / N°: 9 (2024)
ISSN: 2750-6142

ما السخرية؟ المعاني الثَّاوِيَة في المفهوم وِفقاً لِرُؤَى متعددة

ياسين بوشوار
جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب
الايميل: Bouchouaryassine@gmail.com
أوركيد: 0009-0007-1894-9985

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2024/10/6	2024/10/31	2024/10/31

doi: 10.63939/AJTS.tzf4wv96

للاقتباس: بوشوار، ياسين. (2024). ما السخرية؟ المعاني الثَّاوِيَة في المفهوم وِفقاً لِرُؤَى متعددة. *المجلة العربية لعلم الترجمة*، *3*(9)، 360-375.

ملخص

تقدم هذه المقالة محاولة في استكشاف بعض الآراء الفلسفية والسوسيولوجية والنقدية التي تناولت السخرية كموضوع للبحث، كما تهدف إلى سد الفجوة المعرفية المتعلقة بالأدبيات حول دراسة السخرية. لقد برزت العديد من الآراء التي حاولت تفكيك هذا التعبير المعقد وفهم ماهيته ووظائفه في مختلف السياقات الاجتماعية والثقافية. بعض هذه الآراء ترى السخرية أداة للتحرر، حيث تتيح للأفراد مساحة مهمة لنقد النظام الاجتماعي والأيديولوجيات السائدة، في المقابل يراها البعض الآخر بمثابة أيديولوجية زائفة، محطمة للأخلاق والذوق. وآخرون يعتبرونها كآلية للهيمنة وفرض التفوق، وتحقير الخصوم. بينما هناك من يعتبرها وسيلة للتسلية المفرطة وضد الجد، في حين يجدها البعض الآخر أداة فعالة للإصلاح الاجتماعي. إلى جانب هذه الآراء المختلفة، نناقش إمكانية التمييز بين السخرية وتعبيرات أخرى مماثلة مثل الضحك، والفكاهة، والهزل، والمداعبة، والمزاح، والنكتة.

الكلمات المفتاحية: السخرية، الضحك، الهزل، علم الاجتماع، الفلسفة

© 2024، بوشوار، الجهة المرخص لها: المركز الديمقراطي العربي.
نُشرت هذه المقالة البحثية وفقًا لشروط Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0).
تسمح هذه الرخصة بالاستخدام غير التجاري، وينبغي نسبة العمل إلى صاحبه، مع بيان أي تعديلات عليه. كما تتيح حرية نسخ، وتوزيع، ونقل العمل بأي شكل من الأشكال، أو بأية وسيلة، ومزجه وتحويله والبناء عليه، طالما يُنسب العمل الأصلي إلى المؤلف.

المجلة العربية لعلم الترجمة
Arabic Journal for Translation Studies
OPEN ACCESS
المجلد 3، العدد 9، 2024
Vol: 3 / N°: 9 (2024)
ISSN: 2750-6142

مقدمة

طالما شغلت السخرية وتوظيفاتها المتعددة اهتمام الباحثين في مختلف التخصصات. فقد شكلت التأملات الفلسفية المبكرة الأرضية التمهيدية التي أسهمت في انفتاح باقي التخصصات على دراسة السخرية واستكشاف ما وراء التعبير الساخر. إذ تعددت الآراء والخبرات البحثية التي حاولت تحديد ماهية السخرية، ومع ذلك بقيت السخرية عصية على التحديد. فهي كما يشير بول دو مان (Paul de Man) في محاضرته الشهيرة حول مفهوم السخرية "The Concept of Irony" إلى أنها في الواقع ليست مفهوما كما نتخيله، بل أقرب إلى أن يكون عبارة عن مجموعة من الاستعارات المجازية التي يصعب حصرها وتحديدها. (Paul de Man, 1996, p. 164). وتجاوزا لأزمة التعريف، سعى الباحثون آخرون إلى دراسة الأبعاد الوظيفية للسخرية وتعبيراتها المتنوعة. واعتبرها على سبيل المثال، كيركغارد (Sören Kierkegaard) أداة لتحرر الذات، بينما ينظر إليها تيودور أدورنو (Theodor Adorno) بنوع من التوجس، حيث أصبحت في عالمنا اليوم مناقضة للحقيقة، فهي، مثل الأيديولوجيا، تزيف الواقع (Theodor Adorno, 2005, p. 210). في حين ينظر علماء الاجتماع آخرون إلى السخرية من خلال وظائفها الاجتماعية، فمن وجهة نظر سوسيولوجية، يُرى أن التعبيرات الساخرة من الفكاهة والضحك هي موضوعات تهم المجتمع أولا، "إذ، لا ينبغي لأحد أن يجادل في أن مختلف التعبيرات الساخرة من الفكاهة والضحك ليست اجتماعية" (Daniel Uwanamodo, 2019). حيث تتفاعل السخرية مع مختلف البنيات الاجتماعية، وتعكس طبيعة التفاوتات وشكل العلاقات الناشئة داخل شبكة اجتماعية ما، كما أوضح إرفينغ غوفمان (Erving Goffman). كما يمكن أن تؤدي طبيعة السياق الاجتماعي إلى تعزيز أو تقويض استخدامات السخرية. فهي بهذا المعنى، قد تعزز العلاقات الاجتماعية أو تعطلها، حيث تتيح السخرية للأفراد التعبير عن مواقفهم تجاه النظام الاجتماعي، وتسهم في تسليط الضوء على التميزات والفوارق الاجتماعية والعرقية والجنسية. كما تكشف عن التوترات الاجتماعية والسياسية القائمة.

هكذا، ورغم ما تحمله السخرية من دلالات ومواقف لا تنفصل عن الواقع الاجتماعي المتغير، إلا أن الاهتمام بها يبقى محدودا نسبيا في الحالة المغربية، خاصة في الجامعات ومراكز الدراسات والأبحاث، بما في ذلك الأحزاب السياسية. تكمن أهمية هذا البحث في استكشاف بعض الآراء الفلسفية والسوسيولوجية والنقدية واللسانية التي تناولت السخرية كموضوع للبحث، كما يهدف إلى سد الفجوة المعرفية المتعلقة بالأدبيات حول السخرية، من خلال عرض وتحليل مواقف وآراء الباحثين حول السخرية وتعبيراتها المختلفة. تستعرض المقالة تأثير السخرية في تشكيل مختلف المواقف الحياتية بالكشف عن الوظائف والأدوار المحتملة للسخرية في الحياة الاجتماعية، كما يراها الفلاسفة والنقاد وعلماء الاجتماع. على ضوء ذلك، ماهي أبرز هذه الآراء التي حاولت استكشاف مفهوم السخرية؟ وكيف يمكن تحديد ماهيته؟ وكيف يمكن تمييز السخرية عن مفاهيم أخرى مماثلة مثل الضحك، الفكاهة، الهزل، المداعبة، المزاح، النكتة؟

1. ما السخرية؟

تعد السخرية جزءا من النشاط الأساسي والحصري للإنسان، فالإنسان كائن ساخر بطبعه. إذ، لا وجود للضحك في الطبيعة أو خارج ما هو بشري. "فالأشجار لا تضحك، والحيوان لا يعرف الضحك، والجبل لم يضحك يوما [...] وإنما يضحك البشر وحده، حتى قبل أن يتعلموا الكلام، مثلما يقول إبراهيم زكرياء" (إبراهيم زكرياء، 2012، صفحة 7). إن انفراد الإنسان

بخاصية إنتاج وتلقي السخرية، هو ما يجعلها أكثر ارتباطا بالطبيعة البشرية، فلا شيء هزلي خارج ما هو بشري، كما نجد عند هنري برغسون (Henri Bergson) (هنري برغسون، 1981، صفحة 10). ومع ذلك، فإن السخرية رغم كونها فعلا بشريا، فهي كذلك خطاب يعكس ثقافة المجتمعات، فلا يمكن تصور السخرية وتعبيراتها المتنوعة بمعزل عن الرموز والثقافة والمجتمع. إن السخرية وفقا لهذا المعنى، شرط لا غنى عنه في مختلف مناحي الحياة، فهي تلعب دورا رئيسا في تشكيل الفهم والخبرات الإنسانية الأصيلة. و"نكرر ما اقتبسه توماس مان (Thomas Mann) عن جوته (Goethe) قائلا: السخرية هي تلك الحبة الصغيرة من الملح التي تجعل الطبق مستساغا. وقد نتفق أيضا مع سورين كيركغارد (Sören Kierkegaard) حين قال، كما يدعي الفلاسفة أنه وكما لا يمكن وجود فلسفة أصيلة حقيقية بدون شك، فإنه وبنفس المنطق لا يمكن للمرء تخيل وجود حياة إنسانية أصيلة دون سخرية" (Douglas Muecke, 2021, p. 4).

إن انفراد الإنسان بإنتاج مختلف تنويعات السخرية يجعل من إمكانية تعريفها وتحديد مختلف أنماطها عملية غاية في الصعوبة. لقد حاول العديد من الباحثين والمفكرين والفلاسفة من ميدان بحثية مختلفة، بدأ بهوميروس (Homer) وأفلاطون وسقراط، مرورا بهيغل (Hegel) كيركغارد وصولا إلى ليندا هتشيون (Linda Hutcheon) ودوغلاس ميوك (Douglas Muecke) وبول دو مان (Paul de Man) وغيرهم، من فك لغز السخرية. إن حضور السخرية في كل مناحي الحياة، يكسبها صفات وأشكالا متنوعة، تختلف باختلاف السياق الحاضن لها. ونظرا لطبيعتها المركبة وتشابكها مع مصطلحات متعددة مثل الهزل، التهكم، التحامق، الفكاهة، التنكيت، وغيرها من التعبيرات الأخرى، فضلا عن ارتباطها من جهة ثانية بمواقف الحياة اليومية، التي تجدد نفسها باستمرار، يجعل من الصعب الإمساك بكل تفاصيلها، وتحديد ما إذا كان خطاب السخرية خطابا ساخرا أم لا. فهي كما وصفها برغسون في كتابه "الضحك" "إنها قبل أي شيء آخر، شيء حي" (هنري برغسون، 1981، صفحة 9). لذلك، يتطلب تناول السخرية كموضوع للبحث حذرا معرفيا، إذ ليس كل خطاب هزلي هو بالضرورة خطاب ساخر، وليس كل ما يثير الضحك يعد تعبيرا عن فعل ساخر.

أدرك "دوغلاس ميوك" هذه المفارقة، عندما اعتبر السخرية مفهوما غامضا، غير مستقر، ومتعدد الأشكال. فما تعنيه كلمة سخرية اليوم لا يعكس بالضرورة ما كانت تعنيه في القرون السابقة، كما تتباين معانيها باختلاف الأفراد والمجتمعات، فهي تتغير بتغير السياق والمحيط والوسيط. يرى "ميوك" أن فهمنا للسخرية هو نتيجة ممارسات تراكمية على مدى قرون سابقة (Douglas Muecke, 2021, p. 7). ولعل ما يعزز هذا التباين أيضا، ارتباطها بشبكة واسعة من المصطلحات والتعبيرات المتشابهة، فضلا عن كونها مجالا بحثيا معقدا يجذب اهتمام الباحثين من مختلف التخصصات، فهي من جهة تشكل جزء من اهتمام علم الجمال، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والتاريخ، والأنثروبولوجيا، والفلسفة، واللسانيات، بالإضافة إلى ارتباطها بعلم الأعصاب.

في المقابل، وعودةً إلى قواميس ومعاجم اللغة العربية، نصادف نوعا من الإجماع، إذ تأتي السخرية في "لسان العرب" مرادفة للهزء والضحك والاستخفاف، فهي من مادة (س.خ.ر) وأصل التسخير: التذليل. وجاء في "اللسان" أيضا: "سخر سخرته، أي قهرته وذللته" (شادلي المصطفى، 2014، صفحة 45)، ومعنى ذلك أن السخرية مرادفة لفعل الاستقواء والسيطرة، والاحتقار والكره. (ابن منظور، صفحة 1963). وهو نفسه ما جاء في معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين بن زكرياء، والذي يعتبر السخرية (السين والخاء والراء) من أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستذلال. [...] سخِرت منه، إذا هزئت به. ولا يزالون

يقولون: سخرت به (أبي الحسين أحمد بن زكرياء، 1979، صفحة 144). وجاء في القرآن: "**فإنا نسخر منكم كما تسخرون**" (القرآن، سورة هود، الآية 38). ويأتي في المعجم الوسيط، بمعنى الاستهزاء والقهر؛ ففلان سُخريا أي كلفه ما لا يريد وقهره. [...] وسخِر منه وبه، سَخْرًا وسُخْرًا وسُخْرِيَّةً وسُخْرِيَةً، أي هزئ به، ومنه المسخرة أي ما يجلب السخرية، والسُخْرَةُ من يسخر من الناس، والسخرية هي الهزء (المعجم الوسيط، ط4، 2004، صفحة 144).

السخرية، كما يتضح من تعاريف المعاجم والقواميس، ترتبط بمرادفات السيطرة والاستقواء والاحتقار والاستصغار. وهو ما يؤكده أيضا على سبيل المثال، قاموس أوكسفورد، والذي يصف السخرية بأنها أسلوب أو موقف يستخدمه عادة الفرد للإشارة إلى عكس ما يعنيه، بهدف الإضحاك أو التفكه، أو لدلالة على الإدانة أو الاحتقار (Dictionary Oxford English, 2024). وفقا لهذا الفهم، ارتبطت السخرية في معظم المعاجم والقوامس بمفاهيم مثل المكر والخداع، والمكيدة. كما تفهم أيضا كمرادفات للضحك والدعابة، والتفكه، والهزل، والمزاح، حيث وردت في لسان العرب وفق الشكل التالي (راجع لسان العرب):

- الدعابة: المزاح أو المداعبة: الممازحة ومن معانيها: اللعب والمضاحكة والمزح؛
- والمزاح: أي الدعابة، وهي نقيض الجد؛
- التهكم: وهو الاستخفاف، والعبث، والاستهزاء؛
- والهزل والهزالة: أي الفكاهة، والفكاهة: من معانيها المزاح وفكه الرجل فهو فكه، إذا كان طيب النفس مزاحا، ويقال فكهم بملح الكلام: أي أظرفهم.

على الرغم من هذا الإجماع المعجمي وارتباط السخرية بعائلة واسعة من المرادفات ذات الصلة بدينامية الإضحاك، تبقى مهمة التمييز بين السخرية، والتهكم، والمزاح، والدعابة، والضحك، والهزل مسألة في غاية التعقيد، بالنظر إلى مستوى التقارب الشديد بين هذه المرادفات من جهة؛ وتغيّر دلالتها حسب السياق والفهم والمعاني التي قد تحملها من جهة أخرى. لقد لاحظ "بول دو مان" أهمية الأسئلة المتعلقة بتحديد "مفهوم السخرية" عندما يعلن بشكل قاطع أن السخرية "ليست مفهوما" بل، كما يقول، هي "استعارة". فليست هناك صورة واحدة للسخرية، ولا فلسفة واحدة تؤسسها، ومع ذلك هناك من ينظر إليها بعد "كيركغارد" أنها في المقام الأول مجرد وجهة نظر (Timothy Brennan, 2014, p. P386.). في المقابل تنظر "ليندا هتشيون"، إلى السخرية على نحو مختلف نسبيا، فهي بالنسبة لها ليست مجرد استبدال دلالي للمعنى الحرفي بالمعنى العكسي، إنما هي عملية تواصلية معقدة، حيث يتفاعل المحكي مع غير المحكي، والمقول بغير المقول. وهو بخلاف ما ذهب إليه "دومان" ترى "هتشيون" أن السخرية ليس مجرد استعارة، كونها -السخرية- تتميز بالحس النقدي (Linda Hutcheon, 1992, p. 220).

لهذا، يعتبر تحديد هذه التمايزات أو الفروق من الناحية المنهجية مَطلبا أساسيا في مقاربة أسئلة السخرية والإضحاك في موضوعات الحياة اليومية. إذا، إلى أي حد يمكن التمييز بين السخرية وعائلتها الواسعة من المرادفات؟

2. السخرية، الهزل والضحك: استكشاف الحدود

تلتقي السخرية مع الهزل في منابعها ومعانيهما الباطنية، لكن السخرية تختص بالقصدية، ووجود هدف من ورائها. فهي "تشترط الذكاء والخفاء والمكر للكناية بالأعداء والخصوم، باستعمال آليات لسانية لغوية في غالب الأحيان[...] وأصل التسخير التذليل وهو –الساخر- يسعى دوما إلى إخضاع خصمه له والسيطرة عليه وتقزيمه، وذلك أنها –السخرية- غالبا ما تتضمن

حكما قيميا وهدفا تصحيحيا" (شادلي المصطفى، 2014، صفحة 51). إذ، "لا يمكن إثبات أهمية الساخر دون إثبات مدى جديته في الوقت نفسه، وهذا ما يجعل السخرية تحمل في جوهرها وظيفة تصحيحية" (Douglas Muecke, 2021, p. 5). والسخرية في الحقيقة ليست نقيض الجدية؛ بل تسعى في كثير من المواقف الكشف عن حقائق مخفية أو حقائق يصعب التعبير عنها بشكل مباشر. حيث يحاول الساخر تقديم أسلوب تصويري مبالغا فيه، مثل وضع الشخص في صورة مضحكة، كتصوير أحد أعضائه ومحاولة تشويهه [...]، وقد توظف السخرية أحيانا لإخفاء المقصود من الكلام، بمعنى أنها تدل في ظاهرها على الجد أما في باطنها فدلالتها تكون حول الهزل، وهي بهذا لا تخلو أَلفَاظُها الدالة من ألفاظ أخرى تحمل معنى الذم والهجاء (نزار عبد الله خليل الضمور، 2012، صفحة 67.).

"أما الهزل الذي في اللغة ضد الجد، فالغاية منه هو إثارة الضحك بمختلف مراتبه، وليس الكشف عن حقيقة ولا يكون بالضرورة مرتبطا بغاية" (شادلي المصطفى، 2014، صفحة 51). ويبرز أناتول فرانس، (Anatole france) أن خطاب الهزل المتجسد في السخرية والتهكم هو معادل الشفقة في خدمة المجتمع. ويرى محمد الحوفي أن هذا الرأي يعبّر عن مسألة واحدة، هي أن منشأ التهكم ينبعث من تلك الرغبة في الإصلاح، لذلك عده "أناتول فرانس" عديل الشفقة في خدمة المجتمع وإصلاح شؤون الحياة والناس. ويقول: "إن التهكم يحبب إلينا الحياة بابتسامة، كما أن الشفقة تقدر الحياة بدموعها، ويضيف أن التهكم هو وسيلة للسخرية من الحمقى والأشرار والمعوجين، وهذه السخرية هي التي تحول بيننا وبين كراهيتهم، لأن ضحكاتنا منهم وسخريتنا بهم تخفف من غيظنا وغضبنا عليهم" (عبد الله الكدالي، 2018، صفحة 238.). وعموما ينظر "أناتول فرانس" إلى الهزل على أنه سمة بارزة في المجتمعات، يقول: "إن العالم بدون الهزل/السخرية سيكون مثل غابة بدون طيور"، ولكننا في الواقع لا نتمنى أن تكون لكل شجرة طيرا أكثر من أوراقها، كما يشير "دوغلاس ميوك". ويمكننا بدلا من ذلك أن نرى أن الساخر وغير الساخر هما متضادان ومتكاملان، مثل العقل والعاطفة، كلاهما مرغوب وضروري، ولكنهما غير كافيين لتلبية جميع احتياجاتنا. فكما نحن بحاجة إلى الهزل فنحن أيضا بحاجة الجدية (Douglas Muecke, 2021, p. 6).

> طُرحت مسألة علاقة الهزل والسخرية بالأخلاق عند برغسون، من خلال التمييز بين الانفعال والعقل أو التفكير؛ فالتفكير بوصفه مجالا عاما والانفعال بوصفه مجالا شخصيا أو خاصا، حيث يرتبط الضحك بالأول والشفقة بالثاني، ويقول: "إن اللامبالاة هي بيئة الهزل الطبيعية، والضحك ليس له عدو أكبر من الانفعال. أنا لا أريد القول إننا لا نستطيع الضحك من شخص يثير فينا الشفقة مثلا، أو حتى الود: إذ عندها فقط، وللحظات، يتوجب نسيان هذا الود وإسكات هذه الشفقة. في مجتمع العقول الخالصة ربما لا نبكي، ولكننا لا نضحك أيضا، في حين أن النفوس الجامدة العاطفة، والمنسجمة مع الحياة، حيث يستمر كل حدث كصدى عاطفي لا تعرف ولا تفهم الضحك." ويضيف قائلا: "إن الهزل يقتضي، لكي يُحدِث كلَّ أثره، شيئا يشبه التخدير المؤقت للقلب. إن الهزل يتوجه إلى الذكاء الخالص" (عبد الله الكدالي، 2018، صفحة 245) (هنري برغسون، 1981، صفحة 11).

في التمييز بين السخرية والهزل، اعتمدت الباحثة "ليندا هتشيون" على مفهوم الأثر (Ethos) [...]؛ باعتباره كل ما يرمي المخاطب نقله للسامع أو القارئ، أو هو رد فعل هذا القارئ أو السامع، والانطباع الذاتي الناتج عن تلقيه للخطاب (أحمد شايب، 2008، صفحة 217). حيث ترى الباحثة أن التمييز بين هذه الاصطلاحات رهين بالأثر الذي تحدثها داخل الخطاب وتداوله، ويجري التفريق إذن بين السخرية والهزل؛ بما تحمله السخرية من أثر احتقاري واستهزائي، فبدون حصول هذا الأثر

والانطباع تفقد وجودها وحضورها داخل الخطاب، [...] أما المحاكاة الهزلية فتتميز بأثرها الاستهزائي في المحاكاة الساخرة والأثر اللعبي في المحاكاة الفكاهية (أحمد شايب، 2008، صفحة 17). وفقا لهذا المعنى، فإن تمييز السخرية عن باقي الأنماط الأخرى، يتوقف عند تقييم ردود الفعل الناشئة عن الجوانب العملية والتفاعل القائم بين الساخر والمفسر، وبين المحكي وغير المحكي، وتقييم الأثر الناجم عن هذه العملية (Linda Hutcheon, 1992, p. 220).

وفقا لهذه الآراء؛ يمكن القول إن السخرية هي الوجه غير اللائق للمحاكاة الهزلية لأنماط الدعابة المختلفة، وهي بذلك متعارضة معها من حيث المبدأ، سواء في الغاية أو التوظيف أو الأثر. وهذا التعارض كما يراه "هنري برغسون"، هو تعارض بين الواقعي والمثالي وبين ما هو قائم وما نبغي أن يكون، إذ يرى أن الدعابة تمثل نقيض السخرية، حيث يمثل كل منهما عالما مختلفا، عالم مثالي وآخر واقعي (هنري برغسون، 1981، صفحة 85). ومع ذلك إن كان لا بد من هذا التمييز الذي أقره برغسون، فإن فلاديمير جانكلوفيتش (Vladimir Jankélévitch) له وجهة نظر مختلفة، يرى استحالة الفصل بين السخرية والدعابة بتلك البساطة التي يعتقدها البعض. ويقول: "إن من يجعل السخرية والدعابة صنفين مفهوميين منفصلين، ويطالبنا باختيار أحدهما، إنما يجعلنا سجناء بلاغ نهائي شبه كاريكاتوري، لأن الأصل في هذين الموقفين من الوعي، أنهما يخضعان معا للتلاشي والضبابية، حيث تتعدى السخرية على الدعابة وتتفاعل هذه الأخيرة مع الأولى. ولهذا السبب، نخلط بين كلمتي السخرية والدعابة في الممارسة" (سينتيا فلوري، 2017، الصفحات 86-87).

أما بخصوص تحديد مفهوميْ السخرية والضحك، فقد وضع الناقد الإنجليزي أرثر كيسلر (Arthur Koestler)، حدودا جوهرية بينهما، ذلك في مقالة له عن دائرة المعارف البريطانية، بعنوان "الفكاهة". يُعرّف فيها السخرية بأنها العمل أو القول المثير للضحك، أما الضحك فعرّفه كيسلر بأنه "مجرد فعل انعكاسي لا إرادي [...] إنه استجابة فسيولوجية بسيطة لمثير أو منبّه شديد التعقيد" (أحمد أبوزيد، 1982، صفحة 5)[1]. إن الضحك بهذا المعنى هو نوع من التحفيز الذي يميل إلى إثارة رد الفعل (Jérôme Cotte, 2012, p. 7)، خاصة وأن الفاعل الأساسي في عملية إنتاج المادة الساخرة أو الذي يخترع النكتة أو فكرة فكاهية نادرا ما يثيره الضحك، نظرا لاشتغاله في إطار يعرفه جيدا، وليس من نفس نوع المشاعر المثارة لدى المتلقي/الجمهور، لأنه غالبا ما ينخرط في تمرين فكري قبلي، مثلما نجد في شخصية المهرج" (Ferris Donald, 1972, p. 78). ويأتي الضحك عند إريك بلونديل (Éric Blondel) كظاهرة فسيولوجية منفلتة، وهي شيء مرتبط بالجسد بالدرجة الأولى (Éric Blondel, 1988, p. 17). فالضحك يشترط وجوبا، وجود شعور مسبق به، وليس مجرد رد فعل. فغالبا ما يكون لدينا انطباع بأن الجسد يضحك ميكانيكيا من تلقاء نفسه دون تفكير أو/ وبلا مشاعر، وفي الواقع، قد يضحك المرء أحيانا وهو في حالة تفكير أو في حركة دون وعي مسبق بذلك" (Jérôme Cotte, 2012, p. 14).

عن نشوء خطاب الضحك، يرى إيمانويل كانط أن الضحك لا يفكر، وحدوده تنحصر في الجسم دون الفكر. ففي نظره، الضحك لا يحمل على التفكير إنما يحقق المتعة فحسب، ويقول: "إن الموسيقى والفكاهة هما صنفان من اللعب يحتويان على أفكار جمالية أو تمثلات فكرية لكنهما، في نهاية الأمر، لا يحملان على التفكير.وإنما يمكن أن يسببا متعة نظرا لسرعة تناوبهما لا غير؛ وبهذا يشيران بوضوح كاف إلى التنشيط يتم بهما جسمانيا فقط، حتى ولو كانت الأفكار هي التي تثيره" (إيمانويل كانط، 2005، صفحة 264). وبالتالي فإن الضحك هو حل مفاجئ وغير متوقع. يتصور إيمانويل كانط، أن ما ينبغي أن يثير ضحكا شديدا مقهقها لابد من وجود شيء لا معقول فيه (المرجع نفسه، صفحة 265)، فكل متعلقات الضحك هي بالضرورة أفعال

غير متوقعة ولا يرجى من خلالها شيء؛ غير المتعة. فكلما تحقق التوقع لدى المتلقي كلما أحس بالاستياء بدل الضحك، يؤكد كانط: "أنه لو استطاع أحد أن يثير فينا توقعا شديدا برواية حكاية واستطعنا نحن من جانبنا أن نكتشف كذبها حالا في نهايتها، فإن ذلك سوف يثير لدينا استياء" (المرجع نفسه، صفحة 266). وهو ما عبر عنه تيودور أدورنو (Theodor Adorno) بشكل واضح للغاية، حينما اعتبر تفسير السخرية بمثابة إعلان موتها، حيث تبطل في اللحظة التي تتم فيها عملية التفسير (Theodor Adorno, 2005, p. 210).

على نحو مماثل؛ يقدم آرثر شوبنهاور، الحدث المضحك والساخر، كفعل ينشأ حيث لا نتوقعه، ويتحقق عندما نلاحظ بشكل مفاجئ عدم تلاؤم أو تناقض أو عدم اتفاق أو تنافر بين المفهوم والموضوعات الواقعية التي يوحي بها (أحمد شايب، 2008، صفحة 26). فخلاصة رأي كانط؛ أن الضحك ينشأ من التوقع الذي ينتهي فجأة إلى غير طائل، وخلاصة شوبنهاور أن الضحك في جميع الأحوال هو نتيجة لعامل المفاجأة؛ بإدراك عدم التناسب بين الشيء المضحك والشيء الذي يخطر على البال أنه يشبهه. خلاصة الرائيان [...] أن المضحك هو النزول بالجليل أو الوقور فجأة إلى الابتذال والإسفاف، وإنه في جملته نوع من الحطة (Dégradation) يسرع الذهن إلى الالتفاف إليه (عباس محمود العقاد، 2013، صفحة 43).

وفي قاموس وبستر (Webster) يأتي الضحك، كتعبير مسموع يرتبط بانفعال معين؛ خاصة البهجة والسخرية والارتباك...، ويحدث الضحك من خلال اندفاع الهواء على نحو مفاجئ من الرئتين فتنتج منه أصوات تمتد من القهقهة الانفجارية إلى الضحك نصف المكبوت أو المكتوم (شاكر عبد الحميد، 2003، صفحة 19). وجاء في فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور الثعالبي، وتحت عنوان في مراتب الضحك، أن "التبسم أولى مراتب الضحك ثم الإهلاس، وهو إخفاؤه، ثم الافترار والانكلال، وهما الضحك الحسن، ثم الكتكتة أشد منها، ثم القهقهة، ثم الكركرة، ثم الاستغراب، ثم الطخطخة، (يضحك المرء مصدرا أصواتا من فمه وأنفه) ثم الإهزاق والزهزقة، وهي أن يذهب الضحك به كل مذهب" (المرجع نفسه، صفحة 18).

معلوم أن مراتب الضحك تختلف من شخص لآخر ومن سياق اجتماعي وثقافي لآخر، كما ينطوي على أثار اجتماعية متينة. إن وجود الضحك أو غيابه، يعكس طبيعة العلاقات التي تتشكل بين الأفراد بعضهم ببعض، وتكشف عن طبيعة علاقتهم مع المؤسسات. يذهب مجموعة من علماء الاجتماع مع هذا الرأي، حيث يذكر تافوري (Tavory Iddo) أن "النكات دائما ما تُصمم لتناسب تجارب اجتماعية محددة"، بينما يراها كل غاري فاين وميكايلا دي سوسي (Michaela De Soucey and Gary Fine) كآلية فعالة لبناء الجماعات -المجموعات الاجتماعية- (Daniel Uwanamodo, 2019, p. 149). فلماذا يختلف الأفراد فيما يتعلق بالأشياء التي تضحكهم أو ترفه عنهم أو تسليهم؟ (شاكر عبد الحميد، 2003، صفحة 28). ولماذا قد يعتبر الجادون الضحك أمرا غير مرغوب فيه؟ (Éric Blondel, 1988, p. 10)، ثمّ، وبرأي توماس هوبز (Thomas Hobbes) لماذا يستهوي الضحك ضعاف النفوس فحسب؟ (توماس هوبز، 2011، صفحة 66).

إن الجواب عن هذه الأسئلة، يكمن في تجربة الضحك نفسها، فبقدر ما هي عملية فيسيولوجية، وانفعالات على مستوى عضلة الصدر والوجه، فهي كذلك تنطوي على عمليات تأويلية اجتماعية وثقافية لا حدود لها. فعلى سبيل المثال، يمكن أن يحدث الضحك والتفكه بشكل مستقل عن بعضهما البعض، وهنا يكمن إشكال المفاكهة والتنكيت. فالطريقة الوحيدة التي يمكننا من خلالها معرفة ما إذا كان شخص ما قد فهم نكتتنا هي من خلال ضحكه فقط (Daniel Uwanamodo, 2019, p. 154).

تعد السخرية، إذن، جزءا من تجارب الحياة اليومية التي تتسم بالحركية والمرونة، فضلا عن ارتباطها الوثيق بالسياق الاجتماعي. فقد تكون آنية محدودة في الزمن أو مستمرة حسب درجة تأثير الحدث الساخر. كما تشمل هذه التجارب مختلف الانفعالات الاجتماعية والنفسية، مثل الفرح والحزن، الغضب، والحب، والكراهية، والسخط. بينما يعبر الضحك عن تلك الاستجابة الميكانيكية المشروطة بالوعي بالمادة الساخرة. إلا أن السخرية تتجاوز هذا الفعل المشروط، لتتضمن أحيانا حكما نقديا أو تصحيحيا. بينما ينفرد الهزل بمشاعر الفرح والابتهاج دون اللجوء إلى ممارسات عدوانية أو موجهة للإساءة والتنقيص من شأن الغير. فإن السخرية إذن، على النقيض من ذلك، فهي تحمل سمات الرفض والمعارضة، لذلك نجدها أكثر تعبيرا عن المعاني السياسية والاجتماعية، إذ تبرز السخرية كـ "أداة للتعبير السياسي" (محمد شقير، 2009، الصفحات 220-221)، خاصة في أزمنة القلق والاحتقان والأزمات الاجتماعية، وتنتعش أكثر في سياق الأنظمة السلطوية أو المقيدة، حيث تصبح آلة تواصلية فعالة تعكس تطلعات الأفراد والجماعات.

3. آراء حول التعبير الساخر: كيف نفهم الضحك؟

شاع التعبير الساخر بين الناس بكل طبقاتهم وأصنافهم وفي كل مناحي حياتهم، في المسارح، ومدرجات الجامعات، والمقاهي، والملاعب، والبيوت، بل في الاجتماعات الهامة، والجلسات الحميمية، ولذلك لازم الإنسان منذ الأزل، وسيظل كذلك بلا شك، وكان شيوع هذا الصنف من التعبيرات مصدر قلق وتوجس عند البعض، ومصدر تفاؤل وتقدير عند البعض الأخر (عبد الله الكدالي، 2018، صفحة 7). إن هذا الحضور المكثف للسخرية في حياة الناس، وتباين تقييماتهم لها إلى حد التناقض أحيانا، هو ما أثار اهتمام العديد من الفلاسفة والمفكرين، وجعلها موضوعا للتساؤل والتأمل الفلسفي والفكري.

تعتبر آراء أفلاطون (Platon) من الآراء المبكرة التي تناولت موضوع السخرية؛ وجاءت محاورته فيلبوس (Philebus)، كتعبير عن رأيه حول ظاهرة الضحك؛ باعتبارها، ظاهرة تزاوج بين ثنائية اللذة والألم، ويقول: الضحك من السخرية، والاستهزاء يشبه الحسد، والحسد ألم النفس، والحسود حسب أفلاطون يتمتع بشقاء الآخرين ويتلذذ بتعاستهم (أحمد شايب، 2008، صفحة 18). وهو ما اهتدى إليه أيضا في كتابه الجمهورية الثالثة، معتبرا الضحك فعلا فاضحا غير أخلاقي، واصفا إياه بالمدمر والشر؛ ويقول: إن مخاطر الضحك تكمن في التطرف، فالتطرف أو الإفراط، أيا كان نوعه، وفي أي سلوك وفي أي انفعال، يؤدي إلى فقدان المرء لتحكمه في نفسه، وفي انفعالاته، وأن الضحك المفرط أو المبالغ فيه هو أمر شائن منكر على نحو خاص، لأن الاستجابات التي يقوم هذا الضحك بتوليدها غالبا ما تؤدي إلى العنف، وأنه حتى قبل أن يصل الموقف إلى مستوى العنف فإن الضحك المسرف أو المبالغ فيه كثيرا ما يؤدي إلى تحول الإنسان العادي أو المواطن الصالح إلى واحد من أقل الشخصيات جاذبية وأكثرها إثارة للسخرية والاستهجان داخل المجتمع، إلا وهي شخصية المهرج والمضحك، حيث يظهر أسوأ أنواع السلوك، ويعمل على تقويض أسس المشاعر والعلاقات الرصينة المبجلة في المجتمع (عبد الله الكدالي، 2018، صفحة 37). وعليه فإن تسرب الضحك في كل مناحي الحياة كرد فعل أو كممارسة اجتماعية قد يخرج المجتمع من دائرة الإنجاز ويدفعه صوب مجتمع الفرجة والاستعراض، فيصبح بذلك كل حدث أو واقعة محط هزل وسخرية مهما بلغة درجة أهميتها.

من الجدير للاهتمام، نقد أفلاطون لأصول الضحك المفرط ورفضه له، وهو في الوقت ذاته، يوظف السخرية والتهكم كأسلوب في الحجاج، مما يظهره في الوهلة الأولى كما لو كان متناقضا مع تأملاته وآراءه، إلا أن توظيفه لهذا السلوب يبطن في

الواقع ما كان يدعو إليه، لأنه لم يكن لغاية الهزل والإضحاك، وإنما كوسيلة لنقد مُحَاوره وتصحيح أخطاءهم، دون السقوط في نواقض المدينة الفاضلة؛ من عنف، وابتذال وتطرف وإهمال للعقل، وفقدان السيطرة عن الذات.

لقد انبثقت السخرية من فيض الحوارات الفلسفية وارتبطت أساسا بالبعد الأخلاقي الهادف إلى إدانة القيم الخاطئة وإعادة النظر في السائد من الأفكار المتداولة (عبد الله الكدالي، 2018، صفحة 51)، حيث ارتبطت في أصولها الأولى بفن طرح السؤال وادعاء الجهل كما رأينا، وظلت محافظة على هذه الميزة الحوارية، حيث استعملت كسلاح لتهزئة الخصوم والزراية بهم في المناظرات والمساجلات والرسائل الهزلية والهجائية (أحمد شايب، 2008، صفحة 209). لقد سعى أرسطو (Aristote) في المضي في هذا الاتجاه، محاولا تصحيح القيم الخاطئة في المجتمع، ففي كتابته كـ "علم الأخلاق إلى النيكوماخية"، أو "الخطابة" يظهر استعانته بتقنية "الجدل الساخر" في مناقشاته ومناظراته، وتوظيفها للتعبير عن وجهات نظره أو في نسف حجج خصومه. وقد كان أرسطو يحاول التحذير من توظيف السخرية في ما لا يليق بأخلاقيات التخاطب كالتهريج، ويستشهد في ذلك بـ جورجياس (Gorgias) والذي يقول: "إنه يمكنك أن تقتل جِدَّ خصومك بالهزل وهزلهم بالجد" (المرجع نفسه، صفحة 20). ومع ذلك ظل أرسطو متخوفا من استباحة مثل هذا الخطاب للقيم الإنسانية، ويصبح بذلك الضحك ومراتبه مجرد تبادل للشتائم والخصومات والتفرقة بين الناس... فالإفراط في الضحك والسخرية علامة من علامات الخداع والجهالة كما يزعم عباس محمود العقاد، في مؤلفه جحا (عباس محمود العقاد، 2013، صفحة 38)[2]. ولأجل ذلك دعا أرسطو المشرع إلى حظر بعض أنواع الضحك بالقول: "إن مزاح الرجل الحر لا يشبه مزاح العبد، كما أن مزاح الرجل المهذب لا يشبه مزاح غير المهذب[...] ومن الشتم ما حظره الشارعون الذين يكونون قد أحسنوا صنعا لو أنهم حظروا بعض أنواع المزاح" (أرسطو، 1924، الصفحات 51-49).

إذا كان الضحك لدى أفلاطون استجابة انفعالية ترتبط بالحقد، وسوء الطوية والضغينة، والغيرة، فإن أرسطو قد حرره من أن يكون مرتبطا بالشر في الحياة الواقعية، [...] فلم يعد الضحك لديه مرتبطا بانفعالات الجسد السلبية المختلطة التي تمزج بين اللذة والألم، وتُبعثُ على الحقد وسوء الطوية، كما كانت لدى أفلاطون، بل أصبح انفعالا إيجابيا يسعى إليه الإنسان خلال بحثه الدائم عن السعادة، وارتبط الضحك لديه بالأخلاق أو اللياقة والترويح والاسترخاء (عبد الله الكدالي، 2018، صفحة 59). ومنذ ذلك الوقت، عكف عدد من الباحثين والفلاسفة وعلماء الاجتماع والنقاد أمثال هوبز. وإيمانويل كانط (Kant) وشوبنهاور (Schopenhauer)، وبرغسون، وجانكلوفيتش، وباختين (Bakhtine) .وغيرهم على هذا الموضوع.

تتضح تأثيرات تأملات أفلاطون وأرسطو بوضوح في فلسفة توماس هوبز، خاصة في استلهامه فكرة نشأة الهزل والسخرية، وتوظيفاتهما وآثارهما المحتملة. كان هوبز منشغلا بدراسة تأثير السخرية والهزل على الأخلاق، حيث يرى أن الإفراط فيهما مؤدي لفطرة المرء، وقد يؤدي به إلى تدهور الأخلاق إفساد الطباع. وقد ألح هوبز أن السخرية والهزل يعكسان رغبة الفرد في التفوق على الآخرين، وإلحاق الضرر بهم عبر ما أسماه بـ "لمجد المفاجئ" الذي يسبب حركات الضحك. ويرى أن الضحك ينتج إما عن فعل فجائي ذاتي -طبيعي- أو بتمادي المرء في تشويه صورة الآخر، من أجل إرضاء الذات والاحساس بالتفوق، فيقول: "ينتج إما عن فعل فجائي قاموا به هم بأنفسهم فارضاهم، وأما عن إدراك وتشوه ما في الآخر، ويصفقون فجأة لأنفسهم لأنهم يقيسونها بتشوه الآخر[...] فالإفراط على الضحك على عيوب الآخرين هو علامة صغر النفس" (توماس هوبز، 2011، صفحة 66). هذه المقاربة تشير إلى أن هوبز يرى في السخرية والهزل المفرطين أدوات قد تؤدي إلى التفوق الظاهري على الآخرين، لكنها في

الحقيقة تعكس العجز والضعف الداخلي في تقدير الذات عند هؤلاء الساخرين المفرطين. باختصار شديد، حرص هوبز على بيان العلاقة المحتملة بين فعل السخرية والرغبة في التفوق، وهو ما ينسجم مع أصحاب نظرية التفوق، وهو تصور ينشأ من خلال عقد مقارنة مع الآخرين والسعي إلى التفوق عليهم بإذلالهم واستغلال عجزهم.

بهذا المعنى يرى توماس هوبز في استخدام السخرية خارج إطار التأديب والتهذيب، مجرد وقاحة، وقد ذكر في كتابه الشهير "اللفياثان" أن المعركة بين الناس لا يجب تكون باللسان، ما دامت الطبيعة قد سلحتهم بالأيادي، ويقول: "بما أن الطبيعة قد سلحت المخلوقات الحية بعضها بالأسنان وبعضها بالقرون وأخرى بالأيدي لتؤذي عدوها، فإنه لمن إساءة استخدام النطق أن نؤذيه باللسان، ما لم يكن إنسانا نحن مجبرون على أن نحكمه فعندئذ لا يكون الغرض أن نؤذيه وإنما أن نؤدبه ونصلحه" (المرجع نفسه، صفحة 41). لذلك حذرنا من التهكم من الآخرين عبر خطاب التحقير والتقزيم، وبالتالي تكون السخرية خطابا مدمرا للأخلاق، وعن ذلك يقول: إن احتقار السمعة الطيبة يسمى وقاحة (المرجع نفسه، صفحة 67).

السخرية أو التعصب أو الشعور بالإهانة هي في النهاية مواقف تجعلنا في وضع غير مريح أو حتى مؤلم. هنا تكمن المفارقة في توظيفات السخرية للتفوق على الآخرين وحيازة سلطة التخاطب عبر رسم فضاء كاريكاتوري تجلد فيه الضحية كلما ارتفعت أصوات القهقهات. وقد سبق، لهربرت سبنسر (Herbert Spencer) في مقالة له بعنوان "فسيولوجيا الضحك" (Herbert Spencer، 1875)، الإشارة إلى أن الموقف القائل بأن الضحك يرجع فقط إلى الرغبة في التفوق عند إذلال الآخرين، هو موقف مطروح في المقام الأول للاعتراض والنقد، بالنظر إلى أننا لا نضحك دائما عند الإهانات المختلفة للآخرين. وإن شرط تحقق فعل الإضحاك، يتحقق أساسا عندما ينتقل الوعي من أشياء كبيرة أو عظيمة إلى أشياء صغيرة، ويصف سبنسر هذا الانتقال بالتناقض التنازلي، والذي ينطوي على نزع الأشياء العظيم وقارها، وموضعتها في محل غير متوقع، وانزلها منزلة المبتذل والمتداول. وهو ما نجده أيضا عند توماس هوبز باسم الحدث المفاجئ أو تداخل السلاسل والأحداث عند هنري برغسون (هنري برغسون، 1981، صفحة 79)[3]، أي؛ تتداخل عناصر متعددة متداخلة لتحقيق دينامية الضحك؛ إذ يشبه برغسون هذه الدينامية بعمل الآلات.

يعتبر برغسون أن فكرة نشوء الضحك تتجلى كمضمون اجتماعي إنساني بالأساس، إذ لا يمكن إيجاد الضحك خارج ما هو إنساني، فالإنسان وحده من يضحك، ويقول: أنه لا مضحك إلا في ما هو إنساني [...]؛ أنه من أجل فهم الضحك يجب وضعه في وسطه الطبيعي الذي هو المجتمع؛ ويجب بشكل خاص تحديد وظيفته المفيدة، التي هي وظيفة اجتماعية. [...] فضحكنا هو أبدا ضحك الجماعة (المرجع نفسه، الصفحات 6-9-13). وإننا نضحك من الإنسان إذا تصرف في حركاته وأقواله تصرف الآلة الصماء. فإن هذا التصرف يفاجئنا بشيء لم ننتظره من إنسان عاقل تجري أعماله على حكم المنطق الفطري الذي طبع عليه الإنسان المسمى بالحيوان الناطق أو الحيوان المنطقي بعبارة أخرى، فنحن ننتظر عملا منطقيا فنرى أمامنا عملا آليا على غير انتظار أو على خلاف المنتظر (عباس محمود العقاد، 2013، صفحة 56).

لقد أبدع الإنسان الضحك والنكتة والسخرية والهزل والدعابة، كوسائل للعيش والتكيف مع متغيرات محيطه المعاش، وتساعده في ربط وتفكيك وإعادة تشكيل العلاقات الإنسانية والاجتماعية. فالضحك وتعبيراته وفقا لرأي فلاديمير جانكلوفيتش هي وسائل للتكييف مع الذي لا رجعة فيه، إنها تجعل الحياة أكثر خفة وتدفقا [...] وأنها بحث عن العدالة المرتقبة [...] ولهذا يجب أن نختار بين الحميمية والعدالة. ونحن عندما نسخر، فإنما نختار العدالة (سينتيا فلوري، 2017،

الصفحات 88-89-90). بناء على هذا الرأي، فإن للسخرية وظيفة اجتماعية من حيث هي محاولة للفت الانتباه نحو أمور الحياة اليومية وتصحيح السلوك غير المرغوب فيه، بفضحه وتعريته وتحريره من سطوة المسكوت عنه. إن السخرية بقدر ما هي خطاب في الهزل والتهكم فهي في الوقت نفسه خطاب في الجد؛ إن هذا التداخل بين الجد والهزل، يضفي القوة والفعالية على السخرية كخطاب ينفتح على رمزية تأويلية متعددة وعلى سلسلة دلالية شاسعة تتشكل في مختلف مسارات صياغتها الشبه النهائية.

يلاحظ سورين كيركغارد في كتابه مفهوم السخرية (The concept of irony)، أن أكثر أشكال السخرية شيوعا، تتمثل أولا، في قول المرء شيئا على نحو جاد في حين أنه لا يقصد في أعماقه أن يكون جادا، أما الشكل الثاني من التهكم فيتمثل في حديث المرء بشكل هازل أو مضحك عن شيء يقصد منه أن يبدو جادا، وهذا الأمر هو الأكثر ندرة (شاكر عبد الحميد، 2003، صفحة 101). إن السخرية بهذا المعنى، تقتضي التظاهر بما لا يعني المرء قصده. وفي جانب آخر، يرى كيركغارد أن التهكم يحرر صاحبه من أعباء الواقع المعيش والواقع الأمبريقي العملي (المرجع نفسه، صفحة 105). وهو بهذا، يعتبر خطاب الهزل وسيلة في البناء على عكس ما درج عليه فريدريك هيجل وإيمانويل كانط. وهو موقف لا يختلف كثيرا مع موقف ميخائيل باختين، الذي اعتبر نشؤ مثل خطاب الهزل؛ ملازم لتشكل وعي جماعي نقدي له نظرة الخاصة تجاه العالم، نظرة نقدية وتحررية ثائرة على الوضع القائم وعلى والإيديولوجيا الرسمية السائدة. ويصف باختين على هذه الرؤية أو هذا الموقف بـ "الموقف الكرنفالي من العالم" (عبد الله الكدالي، 2018، صفحة 271).

يعبر هذا الموقف أن روح الكرنفال تجسد على نحو ما، الشكل الجديد للعلاقات الإنسانية، حيث يتفوق الأفراد على السلطة أحيانا، وينقضونها أحيانا أخرى. فمن خلال الكرنفال يتم تعليق القوانين والممنوعات والضوابط التي تحدد بينة الحياة الاعتيادية؛ وأول ما يتم تعليقه هو البنية التراتبية وجميع أشكال الرهبة والتبجيل والتقوى والإتيكيت المرتبطة بها؛ أي تعليق كل ما ينتج عن اللامساواة السوسيو-تراتبية أو أي شكل من أشكال اللامساواة بين الناس (ميخائيل باختين، آخرين، 2017، صفحة 51). ومهما كان هذان الموقفان يميلان نحو هذا المنحى، بجعل هذا الشكل من الخطاب خطابا في الحرية؛ إلا أن جوهر الاختلاف بينهما يكمن في اعتبار كيركغارد خطاب السخرية خطابا لتحرر الذات، كتحرير مبني على أساس اللذة والاستمتاع، وهو ما يعتبره حرية ناقصة، بينما عده باختين كميزة أخلاقية تدفع نحو قيمة الحرية، إذ، يرى أن كل إدانة معادية لهذا الخطاب، تمثل في العمق إدانة لأخلاقية التحرر.

الخاتمة

في الختام، نجد أن تقييم فعالية الخطاب الساخر في استخداماته ووظائفه المختلفة لا يقل أهمية عن غيره من أنماط التواصل الاجتماعي. تكشف هذه الآراء المختلفة رؤيتين متباينتين؛ فمن جهة، تعد السخرية أداة فعالة للتبليغ السياسي والاجتماعي، ولنقد السلطة وتعزيز الإصلاح. وبما أن السخرية هي نتاج سياق اجتماعي متصل بالحدث موضوع السخرية وبالسياق الثقافي العام، فهي تترك أثرا جماعيا يدفع الطرف الآخر (موضوع السخرية) إلى موقف ضعف وعجز. فهي لا تميز عادة بين الغفير والوزير ولا بين السلطان والرعية ولا بين الحلال والحرام، بل وسيلة من وسائل الإفلات من ضغوط الحياة اليومية، والتخفيف من وطأة السلطة وشكل حضورها بالفضاء العام. ومن جهة أخرى، يحذر البعض من هيمنة السخرية

المفرطة -رغم قوتها النقدية- على مختلف أنماط الممارسات التواصلية، مما قد يفقدها مضمونها الإصلاحي. فعندما يتحول الفضاء العام إلى مجرد مسرح للمتهكمين والمهرجين، يصبح هؤلاء الأشخاص قادرين على التلاعب بمشاعر المتفرجين بكفاءة عالية، عندها فقط يستطيع هؤلاء "المنكتون" إغراق الفضاء العام بنزعات الإهمال وللامبالاة، وهكذا تنحصر فرص النقد والإصلاح، ويتحول كل حدث مهما كانت جديته وأهميته إلى مادة للمسخرة والتنكيت، مما يخلق جمهورا من الساخرين وجيلا من المتفرجين.

الهوامش

1. هذه الاستجابات ممثلة في انقباض خمس عشرة عضلة من عضلات الوجه بطريقة منسقة ومترابطة، كما يصاحبها بعض التغيرات في طريقة التنفس. ويمكن الاطلاع أكثر على هذا الموضوع في كتاب التعبير عن الانفعالات في الإنسان والحيوانات، لتشارلز داروين، وقد رصد بتفصيل حركات وتعبيرات الضحك. ويقول يتم إنتاج الصوت الخاص بالضحك عن طريق شهيق عميق متنوع بانقباضات ومتفرقة تشنجية لعضلات الصدر... أنظر (تشارلز داروين التعبير عن الانفعالات في الإنسان والحيوانات، مجدي محمود المليجي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى،2005، ص 331).
2. يضحك الإنسان أحيانا إذا يخدع غيره في أمر كان ينبغي أن يحذره المخدوع وينتبه إليه، ومن ثم يرجع سبب الضحك في جميع الحالات إلى الشعور بالتفوق في نفس الضاحك حين يرى غيره يقع في حماقة وأمر ينبئ عن جهالة. للاستزادة (عباس محمود العقاد، 2013، ص 38).
3. يقول هنري برغسون، إن كل موقف يضحك إذا انتسب في الوقت ذاته إلى سلسلتين من الحوادث مستقلتين استقلالا مطلقا، وأمكن أن يفسر في آن واحد بمعنيين متغايرين كل التغاير. للاستزادة (هنري برغسون، 1981، ص79).

قائمة بيبليوغرافيا

- إبراهيم، زكرياء. (2012). *سيكولوجية الفكاهة والضحك*. القاهرة: مكتبة مصر.
- ابن منظور. (1981). *لسان العرب*. القاهرة: دار المعارف.
- أبي الحسين، أحمد بن زكرياء. (1979). *معجم مقاييس اللغة، ج3*. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- أبوزيد، أحمد. (1982). الفكاهة والضحك. *مجلة عالم الفكر، 13* (3)، 32-46.
- شايب، أحمد. (2008). *ضحك في الأدب الأندلسي: دراسة في وظائف الهزل وأنواعه وطرق اشتغاله* (ط.2). الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر.
- أرسطو. (1924). *علم الأخلاق إلى نيقوماخوس* (ترجمة أحمد السيد). القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.
- المعجم الوسيط. (2004). *المعجم الوسيط*. منشورات معجم اللغة العربية.
- كانط، إيمانويل. (2005). *نقد ملكة الحكم* (ترجمة سعيد الغانمي). بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- هوبز، توماس. (2011). *اللفياثان الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة* (ترجمة ديانا حبيب). أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.

- فلوري، سينتيا. (2017). *نهاية الشجاعة: من أجل استعادة فضيلة ديمقراطية* (ترجمة عبد النبي كوارة). بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- شادلي، المصطفى. (2014). *الهزل والسخرية في التراث الشفاهي*. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- شاكر، عبد الحميد. (2003). الفكاهة والضحك: رؤية جديدة. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- العقاد، عباس محمود. (2013). *جحا الضاحك والمضحك*. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- الكدالي، عبد الله. (2018). *الهزل والسخرية: من منظور فلسفات الأخلاق*. الدار البيضاء: المركز الثقافي للكتاب للنشر والتوزيع.
- شقير، محمد. (2009). *السخرية والسلطة بالمغرب من المأسسة إلى التجريم وما بعدها*. الدار البيضاء: إفريقيا الشرق.
- باختين، ميخائيل، وآخرون. (2017). *الكرنفال في الثقافة الشعبية* (ترجمة خالدة حامد). ميلانو: منشورات المتوسط.
- الضمور، نزار عبد الله. (2012). *السخرية والفكاهة في النثر العباسي*. عمان: دار حامد.
- برغسون، هنري. (1981). *الضحك* (ترجمة إسماعيل ملوكي). المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع.

- Uwanamodo, D. (2019). Sociology of laughter and humor. *The Rice Examiner, 2*(1), 149-167.
- Oxford English Dictionary. (2024, September). Irony (n.), sense 1.a. In *Oxford English Dictionary*. https://bit.ly/4gQm7EM
- Muecke, D. (2021). *The compass of irony.* Routledge.
- Blondel, É. (1988). *Le risible et le dérisoire.* Presses Universitaires de France.
- Ferris, D. (1972). Humor and creativity: Research and theory. *The Journal of Creative Behavior, 6*(2), 75-79.
- Spencer, H. (1875). The physiology of laughter. In H. Spencer, *Illustrations of universal progress: A series of discussions* (pp. 194-209). D Appleton & Company. https://doi.org/10.1037/12203-004.
- Cotte, J. (2012). *L'humour et le rire comme outils politiques d'émancipation?* Université du Québec à Montréal.
- Hutcheon, L. (1992). The complex functions of irony. *Revista Canadiense de Estudios Hispánicos, 16(2),* 219–234.
- de Man, P., & Warminski, A. (1997). Aesthetic Ideology. *Journal of Aesthetics and Art Criticism*, *55*(4), 443-445.
- Adorno, T. (2005). *Minima moralia: Reflections from damaged life.* Verso.
- Brennan, T. (2014). The case against irony. *The Journal of Commonwealth Literature, 49*(3), 379-394.

Romanization of Arabic Bibliography

- Ibrahim, Z. (2012). *Sīkūlūjiyyat al-fukāha wa al-ḍaḥk* [*The Psychology of Humor and Laughter]*. Cairo: Egypt Library.
- Ibn Manẓūr. (1981). *Lisān al-ʿArab [The Tongue of the Arabs].* Cairo: House of Knowledge.
- Abū al-Ḥusayn, A. (1979). Muʿjam Maqāyīs al-Lugha *[Dictionary of Language Measures].* Beirut: House of Thought for Printing, Publishing, and Distribution.
- Abū Zaid, A. (1982). Al-fukāha wa al-ḍaḥk [Humor and Laughter]. *Majallat ʿĀlam al-Fikr (World of Thought Journal)*, *13*(3), 32-46.
- Shayeb, A. (2008). *Ḍaḥk fī al-adab al-Andalusī: Dirāsa fī waẓāʾif al-hazl wa-anwāʿihi wa-ṭuruq ishtighālihi [Laughter in Andalusian Literature: A Study of the Functions, Types, and Methods of Humor]* (2nd Ed.). Rabat: Abu Raqraq Publishing House.
- Aristotle. (1924). ʿIlm al-akhlāq ilā Nīqūmākhūs *[Nicomachean Ethics]* (A, El-Sayed. Arabic Trans). Cairo: Egyptian National Library Press.
- Kant, I. (2005). Naqd Malkat al-Ḥukm *[Critique of Judgment]* (S, Al-Ghanimi. Arabic Trans). Beirut: Arab Organization for Translation.
- Hobbes, T. (2011). *Al-Livyāthān: Al-uṣūl al-ṭabīʿiyya wa-al-siyāsiyya li-sulṭat al-dawla [Leviathan: The Natural and Political Foundations of State Authority]* (D, Habib. Arabic Trans). Abu Dhabi: Abu Dhabi Authority for Culture and Heritage.
- Fleury, C. (2017). *Nihāyat al-shajāʿa: Min ajl istiʿādat faḍīla dīmuqrāṭiyya [The End of Courage: For the Recovery of a Democratic Virtue]* (A, Kowara. Arabic Trans). Beirut: Arab Center for Research and Policy Studies.
- Al-Mustafa, S. (2014). *Al-hazl wa-al-sukhriyya fī al-turāth al-shafahī [Humor and Satire in Oral Heritage].* Rabat: Publications of the Faculty of Arts and Humanities.
- Shaker, A. (2003). *Al-fukāha wa-al-ḍaḥk: Ruʾya jadīda [Humor and Laughter: A New Vision].* Kuwait: National Council for Culture, Arts, and Letters.
- Al-Aqqad, A. M. (2013). *Juḥā al-ḍāḥik wa-al-muḍḥik [Juha the Laugher and the Laughable].* Cairo: Hindawi Foundation for Education and Culture.
- Al-Kaddali, A. (2018). *Al-hazl wa-al-sukhriyya: Min manẓūr falsafāt al-akhlāq [Humor and Satire: From the Perspective of Moral Philosophies].* Casablanca: Cultural Center for Publishing and Distribution.
- Shuqair, M. (2009). *Al-sukhriyya wa-al-sulṭa bil-Maghrib min al-maʾsasa ilā al-tajrīm wa-mā baʿdahā [Satire and Authority in Morocco: From Institutionalization to Criminalization and Beyond]*. Casablanca: Africa East Publishing.
- Bakhtin, M., et *al*. (2017). *Al-karnaval fī al-thaqāfa al-shaʿbiyya* [*The Carnival in Popular Culture]* (K, Hamid. Arabic Trans). Milan: Al-Mutawassit Publications.
- Al-Damour, N. (2012). *Al-sukhriyya wa-al-fukāha fī al-nathr al-ʿAbbāsī [Satire and Humor in Abbasid Prose].* Amman: Hamed Publishing House.

- Bergson, H. (1981). *Al-Ḍaḥk [Laughter]* (I, Malouki. Arabic Trans). University Institution for Study, Publishing, and Distribution.